

دار الهوى

في عيد القمر للدكتور زكي مبارك

— أخى الأستاذ الزيات

هل تذكر أنى وجهت إليك مقالاً من بغداد عن « القلب
القريب فى ليلة عيد » منذ نحو أربع سنين ؟ وهل تذكر أنى
تشوقت إلى دار تحب العيد وتجن إليه لأنها ترانى مع العيد ؟
ذلك مقال قُبِسْتُهُ من نار قلبى ، وأخذت مداده من دى ،
وأرسلته تحيةً إلى دار عَظُمَتْ دُبُوسُهَا على قلبى
وإنما وجهت إليك ذلك المقال لأثير فى روحك التشوُّفَ
إلى تحليل ما تعانى الأزواج من متاعب ليس لها فى الظاهر سناد
— من مطالب المجد فى هذا الوجود

فهل فكرت فى تحليل هذا المعنى ؟

وهل حاولت الدفاع عن الأعمار التى تضع فى تشريح
نوازع الوجدان ؟

أنا أطالبك بالرجوع إلى الوجدانيات ، بجانب ما أقبلت
عليه من الاجتماعيات ، فقد كاد الأدب يخلو من الحديث عن
أوطار الأرواح والقلوب . ولا قيمة للأدب إن أغفل الحديث
عن أوطار الأرواح والقلوب
وإليك القصة الآتية :

— فى حفلة من حفلات إحدى الطوائف المسيحية تسابقَ
الحاضرون لتقبيل يد البطريرك ، فرأبته ينهض بقوة ليعانق من
يسارعون إلى التسليم عليه ، مع أنه فيما سمعت قد جاوز التسعين
وعندئذ غلبني الفكر الفلسفى فقلت لجارى فى الحفل : إن
راحة رجال الدين من هموم الحياة تمنحهم طول الصحة والعافية
فقال جارى بحمى : كيف ترى ذلك وغبطة البطريرك يحمل
هموم الطائفة كلها ، ويمعنى نفسه بالعنائى الخفية لجميع البيوت ؟
فقلت : للتعب الفردية أعنف من المتاعب العمومية ،
فأرجل القدي يحمل هموم بيت بُعْدُ أهله بالأحاد أشقى من الرجل

الذى يحمل هموم طائفة بُعْدُ أبنائها بالآلوف أو الملايين . وهل
يحزن وزير المعارف لسوء نتائج الامتحانات العمومية بقدر
ما يحزن لو رسب ابنه فى الامتحان ؟

إحساسنا الصادق يصدر عن متاعبنا الذاتية أولاً وقبل كل
شئ ، ثم يتفرع فيتصل بالمجتمع القريب أو البعيد ، وهل بكى
النبي عند وفاة أى طفل كما بكى لوفاة ابنه إبراهيم ؟

وإذن يكون من حق أن أقول إن الأدب الذى يصور
الذاتيات هو أصدق الآداب ، وهو الآية الباقية على الصدق
الأصيل ، فمن الجنابة على الأدب أن تشغل أعلامنا بهوم خارجية
قبل أن نستوفى التعبير عن همومنا الداخلية

لمجتمع حقوق على القلم البليغ ، يوم يتأثر الكاتب بتلك
الحقوق ، ويوم يرى أنه عن تأييدها مسئول أمام الضمير الأدبى
لا أمام الناس

وأنت ذلك الكاتب ، يا صديقى ، فأتجاهاتك الاجتماعية
تشهد بأنك تحب آلام المجتمع أصدق إحساس ، وسيكون لك
فى هذا الميدان مكان يحفظه التاريخ

وأنا أرتضى لنفسى ما أرتضى لك ، لولا تلك الدار التى
أُسْرَتْ قلبى عدداً من السنين ، ولم أستطع التحرر من أسرها
بأى جهاد

إن تاب الله على من الهيام بتلك الدار فسأجاريك فى ميدانك ،
وسيطول بينى وبينك السجال ، ولكنى أرى الله أكرم من أن
يوجد بذلك المتاب ، لأن نعمته على فى هذه الصلاة أعظم من
نعمته بالهداية على من يقضون أبصارهم عن سحر الجلال
وهل كان من المبعث أن يتفضل الله فيتوَّع الخلائق بهذا
الوجود ؟

إنه نوع الخلائق ليتوَّع المواطن

هل تذكر ما تصنع النسائم بالسحاب والرمال ؟
رأيت بالأمس عجباً من العَجَب : رأيت سُحُباً مطرزة
بسما « مصر الجديدة » على أطراف ما يكون الثَّطْرِيز . ويدلى
أن أجوب الصحراء فى ذلك الوقت فرأيت النسائم صنت بالرمال
ذلك الصنيع

أعجز قلم الكاتب السؤال عما يقدر عليه النسيم الجوال ؟

النسيم يَمبَت ، وما وُصِفَ النسيم بغير المَبَت ، ثم
تكون له القدرة على هذا الافتتان ، فكيف نمجز في الجد
هما استطاعه النسيم في الهزل ؟

الدار التي أهوى تُضِلُّني وتغل عقلي بأوتق الأغلال
الدار التي أهوى تصنع بقلبي فوق ما تصنع النسائم العواث
بالسحائب والرمال

الدار التي أهوى حُيرت أضواء المصاييح أكثر من
شهرين ، إلى مَعَاد ، أو إلى غير مَعَاد ، فما أدري ما تُضمر
الأقدار لمصائر ذلك الهوى النبيل ، ولا أعرف متى تلتقي طائعين
أو كارهين

كل يوم لنا عتابٌ جديدٌ ينفضي دهرنا ونحن غضابٌ
إن تلاقينا - ومتى التلاقى - فستكون لنا شؤون وشجون
إن عادت الدار إلى العهد الذي أعرف فسأكون من الحجاج
في العام المقبل ، وسأنفق جميع أموالى على الفقراء والمساكين .
ثم ماذا ؟

ثم أقص على الأستاذ الزيات هذا الحديث :

في صباح اليوم وأنا في طريقى إلى الواجب قرأت في إحدى
الجرائد أن المحكمة الشرعية أعلنت أن شهر ذى الحجة يتبدى
بيوم الأربعاء ، فعرفت أنني حُيرت رؤية الهلال ثلاث ليال .
ثم خف حزنى حين تذكرت أن القمر غاب عن تلك الدار
أكثر من شهرين

ما هذه اللجاجة في الحب ؟

وما الطمع في كرم الزمان البخيل ؟

إرجعوا إلى الدار ، دار الهوى ، قبل أن تسموا من نذير
الأقدار ما لا تحبون

إرجعوا إلى دار الهوى في عيد القمر غير مأمورين

إرجعوا ، فلدار التي شهدت مولد هوانا حقوق

إرجعوا ، فالفضيحة في غرامي تكريم وتشريف ، لأنى

قيارة الفرام في ألحان الخلود

عيد القمر آتٍ بعد ليال ، فهل أراكم في غرة تلك الليال ؟

القمر يرفى ، فهل تَقُون ؟

القمر يسائر الفصول من شتاء وريبع وصيف وخريف ،

فهل تسايرون أحوالى من ترق وطيش وقرار وجمود ؟

أنا أنا ، فهل أنتم أنتم ؟

لقد صبرتُ وصابتُ لتشهد أحجار تلك الدار أن لها بقايا
من الوفاء التي تدخره كرام القلوب

سينطق الحجر قبل أن تنطقوا ، ولقد نطق خياني ألوف
المرات وأنتم في غيابة العقوق

وماذا تنتظر منى تلك الأحجار ؟

إنها ترجو منى ما أرجو منكم ، ترجو سلاماً من عابري سبيل ،
وأنتم هددتم وتوعدتم بأن لا لقاء في غير الفضاء

عودوا إلى الدار ، دار الهوى ، عودوا إليها سالمين غانمين ،
فإني أعد لكم قتالاً لطف وأرفق من السلام

عودوا إلى الدار في عيد القمر ، وهو آتٍ بعد ليال

عودوا إلى فسا قلبي بمصطبر على نواكم ولا في العمر متسع
إن مت قبل لقاءكم أو فقدتكم قبل المات فخطى عازرٌ ظلعٌ

أنا في انتظار القمر بميد القمر ، فهل يعود مع العيد ؟ وهل
أشهد كلف جيبته وهو غضبان ؟

عودوا إلى الدار لا إلى ، فقد كادت أحجارها تذوب من
نار الاشتياق

يا غاضبين علينا كيف حالكم وكيف دارُها للروح صرَّبع
دارٌ جَلَّوْنا بها حيناً سرَّارنا كأن أيامها في صفوها جَمَّع

لم يُفدق الله فضلاً قاق نعمته بوصول روحى بكم والشمل مجتمِع
أما بعد فما رأى صديقي الزيات في هذا الحديث ؟ وهل

يرانى في ضلال وأنا أناجيه بما لا يريد بعد أن هجر صديقه
لامرئين ؟

حال العين حال القلب ، وللعيون والقلوب أحوال

وقد أشار طبيبى بنظارة تمنع التشرد من أضواء عيني ، فتى

يشير طبيبى بنظارة تمنع التشرد من أضواء قلبي ؟

لن يكون لقلبي حدود . لن تكون تلك الحدود ولن

تكون ، وسيمجز الطب عن جمع الأشعة من أنوار القلوب

متى نلتقى يا دار هواى ؟ متى ؟

عيدُ القمر آتٍ بعد ليال ، فهل تتقاتل بعد ليال ؟

نكى مبارك